

## فكرة الدولة الوطنية في الخطاب العربي الإسلامي المعاصر

## The idea of the national state in the contemporary Arab Islamic discourse

علي بودريالة<sup>1</sup>

جامعة الجزائر2 (أبو القاسم سعد الله)

bouderbalaali@yahoo.fr

تاريخ الوصول 28 /12/ 2019 القبول 24/10/2020 النشر علي الخط 15/09/2021

Received 28 /12/2019 Accepted 24/10/2020 Published online 15/09/2021

## ملخص:

لم يرد مفهوم دولة بالمعنى الحديث صراحة في النصوص الإسلامية المؤسسة، والدولة الوطنية في علمنا العربي وُلدت بطريقة قيصرية على النموذج الغربي الاستعماري وبإيعاز منه، ولم تطرح فكرة الدولة في الفكر العربي والإسلامي للنقاش إلا مع إرهابات النهضة الحديثة وتحت تأثير الهجمة الاستعمارية وصدمة الحداثة، وقد كانت دولة محمد علي باشا النموذج والمرجعية التي سيطرت على المشهد فيما بعد. غير أن خروج مؤلف الإسلام وأصول الحكم كتتويج لسقوط الخلافة في 1924 ودعمًا لدولة مصطفى أتاتورك العلمانية كانت اللحظة التي فجرت المأساة وقسمت الفكر العربي والإسلامي على نفسه حول طبيعة الدولة الوطنية وكيف يجب أن تكون؟ وهو ما يحاول مقالنا معالجته.

الكلمات المفتاحية: دولة ، وطن، إسلام ، علمانية ، نهضة

## Abstract:

The concept of state did not appeared spontaneously according to its current definition in the Islamic texts instituted, and the Nation State, within our Arab world, was born by a caesarean method, modeled on the Western, colonialist model and initiated by him. The concept of state was only suggested to Arab and Islamic thought as a subject of debate by the tumult of contemporary awakening and under the influence of colonial assaults, as well as by the shock caused by modernity. Subsequently, The State of Mohamad Ali Bacha, was a model and a benchmark that predominated in the Seine. However, the appearance of the book “Islam and the roots of governance” was considered to be the apotheosis of the decline of the “Kalifa” in the year 1924, as well as support for the secular state of Mustapha ATATURQUE, it was the spark that started the drama, and hence the division within Arab and Islamic thought concerning the nature of the Nation State and the way it is supposed to present itself?

This is precisely what our article aims to address

**Key words:** country ,homeland ,Islam , secularism , renaissance .

## مدخل:

<sup>1</sup> المؤلف المرسل : علي بودريالة البريد الإلكتروني : bouderbalaali@yahoo.fr

إن مفهوم دولة بالمعنى الذي هي عليه اليوم وعموما ودولة وطنية تحديدا (كيان سياسي وقانوني) مفهوم حديث لم يألفه القاموس العربي الإسلامي، ولا التداول الاجتماعي فمفهوم دولة بمعناه الحديث والمعاصر بمكوناتها ومقوماتها لم يرد صراحة في النصوص الإسلامية الأساسية، فالسلطة في الإسلام كانت أسبق من نشأة الدولة نفسها، وما ظهر منها في المدونة الإسلامية في وقت متأخر من العهد العباسي فهو يشير إلى الأسر الحاكمة لا إلى الدولة. فقد ولدت الدولة الوطنية في العالم العربي والإسلامي الحديث بطريقة قصيرة اقتباسا عن التجربة الحضارية الأوربية الحديثة المهيمنة وفي ظل الاستعمار الغربي وبإيعاز منه، إلا أن الخطاب العربي الإسلامي التاريخي في بعده السياسي يحمل مفاهيم أخرى ذات مضامين ومحمولات تاريخية تراثية مغايرة أقرب إلى ذهنية الإنسان العربي ومخيله الاجتماعي وإلى واقعه أيضا كالخلافة والإمامة والسلطنة والفقهاء السياسي والسياسة الشرعية... الخ من المفاهيم السياسية الإسلامية الأصيلة والمستحدثة كمفهوم الدولة الإسلامية. في ظل هذا الوضع هل ينبغي أن تكون الدولة الوطنية الحديثة النشأة على النمط الغربي السائد أو وفق النمط العربي الإسلامي التاريخي؟

## 1- مفهوم الدولة:

من المعاني اللغوية أن الدولة بمعنى انقلاب الزمان والعقبة في المال، والأيام دُول بين الناس يوما لهم ويوما عليهم والدهر دول وعقب وتُوب (وتلك الأيام نداولها بين الناس<sup>1</sup>)، ومن معانيها جمع المال وتداوله بين جماعة من الأغنياء بهدف الاستئثار به ومنعه عن الفقراء، قال تعالى: (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم<sup>2</sup>) فدولة بالضم الشيء الذي يتداول وهو المال، ودولة بالفتح الظفر في الحرب وغيره<sup>3</sup>. فالدولة كما يقول عبد الله العروبي تحمل مفهوما واحدا عند المفكرين المسلمين وهو المتداول وفي ميدانين ليس أكثر المال والحرب، وبمعنيين (الغلبة والتناوب)، فالغلبة في الحرب تؤدي إلى الاستيلاء على المال والاستقلال به، لكن الحرب سجل ولا دوام لسلطة جماعة واحدة لا بد أن تضعف وأن تخلفها جماعة أخرى، وهذا ما تؤكد تحليلات ابن خلدون لفكرة القهر والاستئثار من جهة وفكرة التداول من جهة ثانية، فالدولة عنده آلة القهر والغلبة، ومن جهة الاستيلاء على السلطة والمال<sup>4</sup>.

## 2- وضع الدولة (الخلافة) في التاريخ الإسلامي.

مرّ العرب تاريخيا بنفس التطور الذي عرفته مجتمعات أخرى في نظام العائلة والملكية والسلطة السياسية... كانوا يعرفون دولة طبيعية دنيوية دهرية هدفها في ذاتها.. تتوخى الشهرة والمال والقهر ولما ظهر الإسلام كان يحمل أهدافا مناقضة تماما لتلك التجربة، وهذا سيؤثر بدون شك في نظرة الأفراد للدولة وللسياسة بل وفي سلوكهم إزاء السلطة<sup>5</sup>. (بينما كانت السلطة السياسية في مجتمعات ما قبل الإسلام تستند إلى اعتبارات بشرية تهيمن عليها مشاعر بشرية أو مجرد حسابات بشرية للغايات والوسائل وتنصرف إلى أهداف أرضية "الملك" جاءت السلطة في الأمة الإسلامية ولاية من الله، تخضع لإرادته وتستهدف سعادة المسلمين في الحياة الآخرة أكثر مما تستهدف سعادتهم في الحياة الدنيا<sup>6</sup>) وتوسع الفتوحات الإسلامية ورثت الدولة الإسلامية أجهزة الدولة الآسيوية "البيزنطية والفارسية" (الحق الإلهي، السلطة الفردية مستهدفة الشهرة والقهر والرفاهية) رغم تعارضها هي الأخرى مع أهداف الإسلام. فهل هذا التركيب المزجي بين العناصر الثلاث: "العربي، الإسلامي، الآسيوي" سيكون عنصر تناغم وتناسق، أم سيكون محل تنافر وتناحر؟

<sup>1</sup> سورة: آل عمران آية:140

<sup>2</sup> سورة الحشر آية 7

<sup>3</sup> انظر عبد الحميد بوقرية: نحن والدولة، ط1 2005، دار الاختلاف الجزائر ص102..106

<sup>4</sup> عبد الله العروبي: مفهوم الدولة، ط8 2006، المركز الثقافي العربي المغرب، ص114

<sup>5</sup> المرجع نفسه ص91

<sup>6</sup> ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ت كرم عزقول، ط3 1977، دار النهار للنشر بيروت لبنان، ص18

يذهب عبد الله العروي إلى أن هذه المكونات الثلاث (الدهرية العربية والأخلاقية الإسلامية والهرمية الآسيوية) لم تتناغم ولم تنسجم إلا في الفترة الأولى (النوبة والخلافة الراشدة) وهي الأقصر أما الفترة الأطول التي يحدثنا عنها التاريخ فهي مرحلة الانقسام والتفكك، فمن دولة الخلفاء الإسلامية إلى دولة الأمويين العربية إلى دولة العباسيين الفارسية<sup>1</sup>.

فالدارس لتاريخ الفكر السياسي الإسلامي يلاحظ أن تدوينه جاء متأخرا جدا مقارنة بتدوين باقي العلوم الإسلامية كالحديث والتاريخ والتفسير والفقه والأدب... وقد امتدت فترة التمهيد له مدة طويلة من أواخر الخلافة الراشدة إلى عصر المأمون العباسي أي إلى أوائل القرن الثاني الهجري. كما ساهم في تكوين بنيته الفكرية كل العناصر الثقافية المحلية والوافدة جاهلية وإسلاما، فقد مر بمراحل بدأت بالمصنفات الأدبية مواعظ ونصائح وأساطير إلى المصنفات الفلسفية ومن مرجعيات غير إسلامية وأكثر من برز في هذا آراء الفارابي المتأثر بأفلاطون وذات البعد الإشرافي الفارسي والهندي<sup>2</sup>، والحال ذاته ينطبق على رسائل جماعة "إخوان الصفا وخلان الوفا". إلى أن جاءت المرحلة الثالثة وفيها بدأ الفصل نوعا ما بين الفلسفة والسياسة والقرب أكثر من الشريعة والفقه الإسلاميين وهي المرحلة التي سادت فيها مؤلفات الماوردي ومن نحا نحوه<sup>3</sup>.

وقد تميزت مرحلة تدوين الأدب السياسي الإسلامي هذه بأنها بدأت بنهج تشريعي لما ينبغي وما يجب وما يجوز وما لا يجوز في نظام الخلافة وتدبير أمر الدولة... وانتهت للأسف إلى مستوى من الإسفاف والمداهنة الخانعة من أجل تبرير تصرفات الملوك وإضفاء الشرعية عليها<sup>4</sup>، ومما يؤسف له أكثر فقد كانت هذه المرحلة بمثابة المرجعية المثلى لما ينبغي أن يكون عليه الاجتماع السياسي الإسلامي وإلى وقت قريب إلى أن جاء عصر النهضة الحديثة التي حاول فيها مفكروها استنهاض الهمم ومن أوائل هؤلاء كل من الطهطاوي وخير الدين التونسي اللذان أوليا اهتماما خاصا بإشكالية الدولة الحديثة في الفكر العربي المعاصر، فاتصالهما المباشر بالحضارة الغربية وفي وقت مبكر ووقوفهما على ما جرى من تحول في المجتمع الغربي منذ إعلان قيام الثورة الفرنسية 1798 جعلهما يدركان بوضوح تام المفارقة بين ما عليه المجتمع الغربي وما هو عليه حال المجتمعات العربية الإسلامية، فقد أوعزا السبب إلى ما عليه الدولة التي تقوم على التنظيمات المؤسساتية في المجتمعات الغربية وما هي عليه من أنظمة فردية استبدادية في المجتمعات العربية فكان اهتمامها منصبا على البحث عن فلسفة للدولة القوية. ولكن هذه المحاولات المبكرة في خطابنا العربي المعاصر على وجاهتها ظلت حبيسة ازدواجية عقيمة، تتخذ مرجعية في فقه الماوردي من جهة، وتحاول تطويرا بالديمقراطية الغربية من جهة أخرى؛ لذلك لم تثمر تأصيلا حقيقيا لنظام حكم متميز واضح المعالم يتماشى وطبيعة المجتمعات العربية ومعطياتها الواقعية<sup>5</sup>.

### 3- فكرة الدولة الوطنية بين الخطابين العلماني والإسلامي:

طرحت مسألة الدولة في فكرنا العربي كما هو معروف في سياق البحث عن النهضة وتحت تأثير الهجمة الاستعمارية، ولم تكن قبل هذا التاريخ قضية مركزية في خطاب مفكري العرب على اختلاف مرجعياتهم بما فيهم ذوي المرجعيات التراثية، ولا حتى موضوع اهتمام وفضول فكري كما كان الحال عند اليونان أو في المجتمع الغربي الحديث مرحلة ما قبل الدولة، فلم يتعرفوا على الدولة كجهاز كامل متكامل

<sup>1</sup> المرجع نفسه ص 92،93

<sup>2</sup> انظر: عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي، فقه الأحكام السلطانية (محاولة نقدية للتأصيل والتطوير)، الفصل الخامس (التصنيف السياسي الفلسفي لدى المسلمين)، ط 1 2001، دون ذكر دار النشر، كتاب إلكتروني باسم الشاملة الذهبية. ص 105

<sup>3</sup> المرجع نفسه ص 107، حيث بدأ التأسيس لما يعرف بالسياسة الشرعية والفقه السياسي.

<sup>4</sup> المرجع نفسه ص 117

<sup>5</sup> المرجع نفسه ص 119 120

يكمل بعضه بعضا فحسب بل عرفوها كتنظيمات دساتير قوانين هياكل جيش إدارة ... عناصر مبتورة عن كلها فسعوا إلى اقتباسها<sup>1</sup> وبشروا بها على أنها دولة العدل والحرية والقانون والدستور دون أن يصلوا إلى نظرية متكاملة في الدولة، وهو ما كان قد وقع بالفعل في تجربة محمد علي باشا بمصر والتي ستكون المرجعية النموذج التي ستلقي بظلالها على باقي التجارب فيما بعد وهو ما أشاد به أنور عبد المالك في دراسته عن تكون الفكر والأيدولوجيا العربية في عصر النهضة. فلم يكن مشروع محمد علي لحظة في المشروع ككل بل كان البداية التأسيسية في ميدان بناء الدولة الحديثة... متأثرا بالنموذج الفرنسي إلى بناء دولة عصرية تنهض بعملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية... وهي الحاضنة للمشروع الثقافي عند الطهطاوي وغيره<sup>2</sup>... ونظرا لأوضاع العالم العربي وماضيه التاريخي المثقل بقيم الإسلام وتراثه فإن الصيغة التي طرحت بها الإشكالية في المجتمعات العربية الحديثة وهي تحت الضغط وفي ظرفية خاصة التطلع إلى ما وصل إليه الغرب من تطور على اعتبار أن السر في ذلك التطور هو قوة جهاز الدولة فيها مع التجاهل التام بأن أوروبا ما وصلت إلى ذلك إلا بعد تحولات تاريخية وحراك اجتماعي مرير، فالصيغة هل الإسلام دين ودولة؟ تحمل مضمونا لا ينتمي أصلا إلى التراث الإسلامي، إن أصول وفصول هذا الطرح لا تجد له وجودا إلا في النموذج الحضاري الأوربي مقرونا بمفاهيم النهضة والتقدم الأوربية التي يطمح العرب والمسلمون اليوم إلى تحقيقها في مجتمعاتهم. فالظروف التي أوجدت المشكلة في أوروبا غير مطروحة في المجتمعات العربية الإسلامية لا حاضرا ولا كما كانت في الماضي<sup>3</sup>. ومن هنا سترتب على هذا الطرح المزدوج لفكرة الدولة كتنظيمات منتقاة من الغرب ومبتورة عن أصلها في مجتمعات عربية إسلامية ذات خلفيات عقائدية مختلفة ستترتب عليه نتائج وخيمة ما تزال آثارها باقية إلى اليوم، ولو أن هناك من اجتهد في أن يكون هذا الاقتباس ضمن نظرية المقاصد (المنافع العمومية) كما طرحها بعض الأصوليين ومنهم الشاطبي، وأن يستثمر في رؤية ابن خلدون وكذا الأحكام السلطانية للموارد كما فعل بعض المتأخرين من رجال الإصلاح. إلا أن فكرة توظيف النصوص وتأويلها بات واضحا، فدفاع الإمام محمد عبده في (توليقيته) عن مدنية السلطة في الإسلام واستمداد شرعيتها من الأمة بما يؤسس لشرعية الدولة الوطنية الحديثة<sup>4</sup>، هو ما سيتخذه اللبراليون العرب وغيرهم مطية في تبنيهم للطرح العلماني للدولة بعيدا عن واقع الحال. فالتفكير في الدولة إلى غاية هذه اللحظة ظل مترددا مشدودا من جهة إلى دولة الخلافة الأمة النموذج التاريخي ومن جهة ثانية إلى الدولة الوطنية النموذج الغربي الحديث فلم يحصل لا هذا ولا ذاك بينما الواقع غير ذلك تماما. فهل فشل دولة محمد علي ومشروعه يعني فشل الدولة الوطنية في العالم العربي المعاصر؟

إن الانقسام الذي حصل حول طبيعة الدولة الوطنية في العالم العربي الحديث بدءا من هذه اللحظة إنما يعود في نظرنا إلى صاحب كتاب (الإسلام وأصول الحكم) الشيخ علي عبد الرازق (1888-1966م) الصادر في (1925) تحت تأثير سقوط الخلافة في 1924 وظهور دولة تركيا العلمانية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك وما قامت به من إصلاحات تحديتية شملت مجالات متعددة سياسية واجتماعية وقانونية والتي ستكون لها انعكاسات على مجموع العالم العربي والإسلامي. واعتمادا منه على ما ورد في وثيقة الخلافة وسلطة الأمة<sup>5</sup> والتي تشير باقتضاب شديد إلى عدم وجود تفاصيل كافية في القرآن الكريم تتعلق بمجال الحكم ونظامه، جعل الشيخ منها دليلا كليا وكافيا على نفي كلي لورود أي شيء يتعلق بالسياسة في القرآن، فكتابه وضع أصلا ليجيب إن كانت الخلافة ضرورية وواجبة شرعا؟ وهل في

<sup>1</sup> علي أومليل: الإصلاحية العربية والدولة الوطنية ط1 1985، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب ص97

<sup>2</sup> عبد الإله بلقزيز: من النهضة إلى الحداثة، ط1 2009، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ص71...74

<sup>3</sup> انظر الجابري: وجهة نظر (نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر) ط1 1992 مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان ص80

<sup>4</sup> عبد الإله بلقزيز: المرجع السابق ص87 88

<sup>5</sup> بيان أو رسالة كتبها بعض الفقهاء الأتراك الموالون لثورة كمال أتاتورك والمؤيدون لقرار الجمعية الوطنية التركية القاضي بفصل الخلافة عن السلطنة، كان هذا في 1922، ترجمها إلى العربية عبد الغني سني<sup>7</sup> وضعت أصلا لتسويغ فصل السلطنة عن الخلافة، والدين عن الدولة وتمهيدا لإسقاط الخلافة رسميا الذي كان في 03مارس1924

الإسلام نظام محدد للحكم ؟ عندما قال: (المسلم العامي يجنح غالبا إلى اعتقاد أن النبي (ص) كان ملكا ورسولا ، وأنه أسس بالإسلام دولة مدنية ، كان هو ملكها وسيدها . لعل ذلك هو الرأي الذي يتلاءم مع ذوق المسلمين العام . ومع ما يتبادر من أحوالهم في الجملة، ولعله أيضا هو رأي جمهور العلماء من المسلمين . فإنك تراهم إذا عرض لهم الكلام في شيء يتصل بذلك الموضوع يميلون إلى اعتبار الإسلام وحدة سياسية ودولة أسسها النبي(ص)<sup>1</sup> ،.. لو كان في الكتاب دليل واحد على أن إقامة الإمام فرض لما تردد العلماء في التنويه والإشادة به ... فانصرفوا عنه إلى ما رأيت من دعوى الإجماع تارة ، ومن الالتجاء إلى أقيسة المنطق وأحكام العقل تارة أخرى<sup>2</sup> . وأكثر من ذلك ينفي وجودها حتى في السنة (...ولو وجدوا لهم في الحديث دليلا لقدموه في الاستدلال على الإجماع<sup>3</sup>). فيحسم القول وينزع كل غطاء ديني عن مسألة الحكم( الدولة) ويرى بأنها شأن عقلي اجتهادي يتساوى فيه المسلمون مع غيرهم من أمم الأرض (الخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية... وإنما تلك كلها خطط سياسية صرفة، لا شأن للدين بها ، فهو لم يعرفها ولم ينكرها ولا أمر بها ولا نهي عنها، وإنما تركها لنا لئلا نلجج فيها إلى أحكام العقل ، وتجارب الأمم وقواعد السياسة<sup>4</sup>... لا شيء في الدين يمنع المسلمين أن يسابقوا الأمم الأخرى في علوم الاجتماع والسياسة كلها ... وأن يبنوا قواعد ملكهم وقواعد حكومتهم على أحدث ما أنتجت العقول البشرية وأمتن ما دلت تجارب الأمم على أنه خير أصول الحكم<sup>5</sup>).

وقد كان لهذه المواقف الجريئة مؤيدون كما كان لها معارضون، فقد أحدثت ضجة فكرية وبلبلت لم يسبق للعالم العربي أن شهد لها مثيلا، هزة كان تأثيرها على الخطاب العربي أقوى مما أحدثته الصدمة الحضارية الغربية نفسها بين مؤيد ومعارض<sup>6</sup> ، فقد كانت اللحظة التي انقسم فيها الخطاب العربي على نفسه بشأن الدولة التي يريدونها.

### 3-1- الدولة كما يطرحها الخطاب العلماني:

تظهر أن الإشكالية قد طرحت امتدادا لإشكالية الخلافة وبديلا عنها ، وقد ارتبط طرحها في الخطاب العربي الإسلامي مقرونة بقضايا النهضة وحيثياتها، فنجح النهضة العربية الحديثة أو فشلها بات مشروطا بمسألة الحسم في القضية من عدمه، بين التيارات الفكرية المتصارعة، فالخطاب العربي الليبرالي انحاز منذ البداية إلى المركز وفلسفته فطه حسين مثلا صاحب المشروع الثقافي التربوي يعتقد كغيره من الليبراليين بأن ما آل إليه العرب إنما يرجع إلى طبيعة النظام السياسي الاستبدادي والحل يكون بما نادى به الطهطاوي وغيره (دولة تنظيمات دستورية) على الطراز الفرنسي طبعاً إلا أن طه حسين يجعل من شروط المواطنة وعي الأهالي عن طريق التربية الحديثة كما هي في أصول الحضارة الغربية ذات الأصل اليوناني<sup>7</sup>، (...والديمقراطية هي أصول هذه الحضارة الحديثة التي أصبحت عالمية تفرض نفسها كنموذج ينبغي أن

<sup>1</sup> علي عبد الرازق: الإسلام وأصول الحكم، دراسة ووثائق محمد عمارة، طبعة 2000 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ص145

<sup>2</sup> المصدر نفسه ص122

<sup>3</sup> المصدر نفسه ص123

<sup>4</sup> المصدر نفسه ص183

<sup>5</sup> المصدر نفسه ص182

<sup>6</sup> فمن الكتب التي صدرت آنذاك في الرد عليه : نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم للشيخ محمد الخضر حسين ، وكتاب حقيقة الإسلام وأصول الحكم للشيخ محمد مجتهد المطيعي ، وكتاب نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم للشيخ محمد الطاهر بن عاشور...

<sup>7</sup> طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، نقلا عن علي أومليل : الإصلاحية العربية والدولة الوطنية ، ط1 1985، دار التنوير للطباعة والنشر بيروت لبنان

أن يجتدى، وما عدا هذا الطريق فهو إضاعة للوقت<sup>1</sup>... ولن يفيد المصريين ولا العرب عموماً أن يلتفتوا إلى ماضيهم العربي الإسلامي... ذلك أن السياسة بنظريتها العلمية وتنوع نظمها لم يعرفها العرب...<sup>2</sup> ومنهم سلامة موسى يقول بصريح العبرة في كتابه: (ما هي النهضة؟) الذي ألفه في 1934 ( لا أستطيع أن أتصور نهضة عصرية لأمة شرقية ما لم تقم على المبادئ الأوروبية للحرية والمساواة والدستور مع النظرة العلمية الموضوعية للكون<sup>3</sup> ). فقد حسم موقفه من الدين ومن التراث بل ومن الماضي العربي الإسلامي ككل، فلا نهضة نهضة للعرب ما لم يتم الفصل بين الدين الذي يكون بين العبد وخالقه وبين المدنيات التي تكون بين الإنسان وابن وطنه أو بينه وبين حكومته... ولذلك كان المزج بين هاتين السلطتين الممتازتين طبعاً والمتضادتين في متعلقاتهما وموضوعهما من شأنه أن يوقع خلافاً بيننا وضرراً واضحاً في الأحكام والأديان حتى لا نبالغ إذا قلنا إنه يستحيل معه وجود التمدن وحياته ونموه<sup>4</sup>. فخطاب القطيعة واضحة مرجعيته مرجعيته الأوروبية، وأن أوضاع أوربا التي نشأت فيها إشكالية الفصل بين الدين والدولة ضمن المرجعية ذاتها معروفة تاريخياً أيضاً.

### 3-2- الدولة كما يطرحها الخطاب الإسلامي:

إنه خطاب الاستمرارية مع التراث مع الماضي بما هو ماضٍ، ( إنّا معشر المسلمين إذا لم يؤسس نهوضنا وتمددنا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير فيه لنا، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا من هذا الطريق... إن ما بلغه المسلمون من عظمة ومجد إنما يرجع إلى قيام دولتهم على أساس الدين، وإن ما طرأ عليهم من الانحلال والضعف إنما يرجع إلى انفصال الرتبة العلمية (الدينية) عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يجوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفرعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم<sup>5</sup> )، يستمر هذا التوجه العام مع رواد الإصلاح بعد الأفغاني ( محمد عبده و عبد الرحمن الكواكبي مع إعطاء الأولوية للتربوي على السياسي مع قبول دولة الأمر الواقع بشرط أن تتفاح الاستبداد وتحترم القواعد العامة للشريعة الإسلامية التي كثيراً ما رأوها تقبل بمبادئ الدولة الحديثة كالحرية والدستور والبرلمان والعدل... يتأكد هذا التوجه أكثر كربط بين دولة الواقع والإسلام التاريخي (الخلافة) مع الشيخ رشيد رضا كرد فعل على طروحات علي عبد الرازق فمع اعترافه بأن ما تقوم عليه الدولة الحديثة ذات المنشأ الغربي ذاك ما تهدف إليه الشريعة الإسلامية ولا تناقضه إلا أن المسلمين بما فيهم أسلافه من المصلحين (الأفغاني، عبده...) لم يتفطنوا إليه إلا بعد اختلاطهم بالأوروبيين (فأعظم فائدة استفادها أهل الشرق من الأوروبيين معرفة ما يجب أن تكون عليه الحكومة واصطبغ نفوسهم بها حتى اندفعوا إلى استبدال الحكم المقيد بالشورى والشريعة بالحكم المطلق الموكول إلى إرادة الأفراد... ولا تقل أيها المسلم إن هذا الحكم المقيد بالشورى أصل من أصول الدين ونحن قد استفدنا من الكتاب المبين ومن سيرة الخلفاء الراشدين لا من معاشره الأوروبيين والوقوف على حال الغربيين، فإنه لولا الاعتبار بحال هؤلاء الناس لما فكرت أنت وأمثالك بأن هذا من الإسلام... إنني لا أنكر أن ديننا يفيدنا في ذلك.. ومع ذلك كله أقول إننا لولا اختلاطنا بالأوروبيين لما تنبهننا من حيث نحن أمة أو أمم إلى هذا الأمر العظيم وإن كان صريحاً جلياً في القرآن الحكيم<sup>6</sup> ). هذا مع أن الرجل ينسب إليه القطيعة مع فكر الإصلاح في تبنيه للدولة الحديثة والعودة إلى إحياء الخلافة على ما كانت عليه عند السلف، فالدعوة إلى دولة وطنية على النمط الإسلامي التاريخي (الدولة الإسلامية) كبديل عن الخلافة التي أضحت طوبى في ظل الواقع العربي الجديد، وهو الخطاب الذي ساد عند حسن البنا في البداية (نظام الحكم الدستوري هو أقرب نظم الحكم القائمة في العالم كله إلى الإسلام... مبادئ

<sup>1</sup> طه حسين: رحلة الصيف: نقلاً عن المرجع السابق ص 131

<sup>2</sup> المرجع نفسه ص 134

<sup>3</sup> نقلاً عن رضوان زيادة: أيديولوجيا النهضة، ط 1، دار الطليعة بيروت، ص 50

<sup>4</sup> النص لبطرس البستاني نقلاً عن الجابري: الخطاب العربي المعاصر، ط 6، 1999، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان ص 68

<sup>5</sup> جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة، تحقيق ودراسة محمد عمارة، نقلاً عن الجابري المرجع السابق ص 66 69

<sup>6</sup> وجه كوثراني: الحركات الإسلامية والديمقراطية ط 2، 2001 مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان ص 327

الحكم الدستوري التي تتلخص في: المحافظة على الحرية الشخصية، وعلى الشورى، واستمداد السلطة من الأمة، وعلى مسؤولية الحكام أمام الشعب... وبين حدود كل سلطة من السلطات، هذه الأصول كلها... تنطبق كل الانطباق على تعاليم الإسلام ونظمه وقواعده في شكل الحكم<sup>1</sup>، فمن هذه النصوص وغيرها لا تبدو جماعة الإخوان مختلفة عن ما جاءت به الدولة الحديثة إلا أن انهم ينظرون إلى هذه الدولة بنظرة كلية شاملة لا تفصل بين الدين والسياسة فالدولة كما هي الخلافة (حراسة الدين وسياسة الدنيا به)، فالدولة والأمة والخلافة تكاد تكون في خطاب هؤلاء بذات المفهوم وعلى هذا بدا الاختلاف واضحاً بينهم وبين دولة القوميين العرب من حيث الجنسية وبينهم وبين الليبراليين العرب من حيث الجغرافيا، فدولة الإسلام لا تحدها حدود وليست مرتبطة بجنس أو قوم معينين والرابطة الوحيدة هي العقيدة الإسلامية، ستظهر هذه الفكرة بأكثر راديكالية عند المودودي من قبل وعند سيد قطب فيما بعد فيما عرف بالحاكمية (وطن المسلم الذي يحن إليه ويدافع عنه ليس قطعة أرض، وجنسية المسلم التي يعرف بها ليست جنسية الحكم، وعشيرة المسلم التي يأوي ويدافع عنها إليها ليست قرابة دم، وراية المسلم التي يعتز بها ويستشهد تحتها ليست راية قوم... والجهاد لنصرة دين الله وشريعته لا لأي هدف من الأهداف، والذيداد عن دار الإسلام بشروطها تلك لا أية دار<sup>2</sup>، فالنكبة التي تعرض لها الإخوان اغتيال حسن البنا ثم محنة السجون والتعذيب... كانت من بين الأسباب الرئيسة في تحول الخطاب حول شكل الدولة من النمط الأوربي الحديث (الدولة الوطنية) إلى نمط الخلافة أو ما عبروا عنه بالدولة الإسلامية. ولكن إلى أي حد استمر هذا الخطاب بنفس الشاكلة عند سائر فصائل الحركات الإسلامية في عهد التعددية السياسية ودول ما بعد الاستقلال إلى يومنا هذا؟

#### 4- بعض النتائج:

- 1- ينبغي أن ندرك أن جهاز الدولة (الدولة الوطنية) في البلاد العربية قامت منذ البداية على فكرة التنظيمات أو الإصلاحات وهي بالأساس إصلاحات مفروضة وتغير في كل مرحلة زمنية حسب الطلب.
- 2- لقد انحصر إصلاح الدولة على الشكل التنظيمي والقانوني دون أن يغير مضمون الدولة في ذاتها.
- 3- قامت فكرة الدولة منذ البداية على أساس المقاربة أو المصالحة بين أزواج من الأفكار مثل الشورى والديمقراطية... من أجل التسوية والتسطيح بين الإسلام والأفكار الغربية من أجل إرضاء الأطراف المتصارعة وليس من أجل بناء دولة حقيقية.
- 4- إن دولة ما بعد الاستقلال (الوطنية) هي امتداد طبيعي للدولة الكولونيالية دولة الاحتلال، فرغم أن دستورها ينص على أن (دين الدولة هو الإسلام) فهي إذا ما استثنى قانون الأحوال الشخصية والتعليم إلى حد ما فهي دولة مدنية بامتياز تفصل بين الديني والسياسي.
- 5- تجتمع الرؤيتان العلمانية الليبرالية والإسلامية في نقد الوضع السياسي القائم وتتفقان على وجوب الإصلاح الشامل نحو النهضة والتقدم وأنه يبدأ بإصلاح الدولة ذاتها لكنهما تختلفان في تصورهما لها.
- 5- تاريخياً الدولة العربية المعاصرة هي وريثة الدولة السلطانية، دولة القهر والتغلب بالتعبير الخلدوني حيث العلاقة بين الأمير والقاعدة علاقة تسلط واستئثار وهيمنة. فلا تداول للسلطة سلمياً بالمعنى الحداثي بل تنازع بالقوة والغلبة، تداول به من سلطان ضعفت شوكته وتراخت إلى آخر أشد سطوة وبأساً.
- 6- أيديولوجيا لا وجود لنظرية الدولة في الفكر السياسي التقليدي ولا عند النهضويين الذين انصب اهتمامهم على الحكومة لا على الدولة ولم يميزوا بين الدولة والمملكة أو بينهما وبين الحكومة، فضلاً عن أن المهاجس الذي استحوذ على هؤلاء انحصر في الدعوة إلى العدل

<sup>1</sup> حسن البنا: مجموعة الرسائل، رسالة المؤتمر الخامس، طبعة دار الفلم بيروت لبنان، دون ذكر السنة وععد الطبعة، ص 235 وما بعدها

<sup>2</sup> سيد قطب: معالم في الطريق، ط 10 1983، دار الشروق مصر ص 85

والإنصاف دون المساس بالسلطان، فقال جلّهم بالمستبدّ العادل أو الاستبداد المستنير، وكانت الأسس والمبادئ المقوّمة لوجود الدولة خارج حساباتهم في الغالب.

7- إن ميلاد الدولة المدنية أو الدولة -في التصور السياسي الحديث- هو أحد تجليات الحداثة وتعبير عن سيرورة التحديث.

8- أن الإسلام السياسي ظاهرة سياسية اجتماعية، وتعبير عن أزمة وجود وتطور

### قائمة المصادر والمراجع:

- علي عبد الرازق: الإسلام وأصول الحكم، طبعة 2000 المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الأردن  
 عبد المجيد بوقرية: نحن والدولة، ط1 2005، دار الاختلاف الجزائر  
 عبد الله العروي: مفهوم الدولة، ط8 2006، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب  
 البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ت كريم عزقول، ط3 1977، دار النهار للنشر بيروت لبنان  
 عبد الكريم مطيع الحمدوي: فقه الأحكام السلطانية (محاولة نقدية للتأصيل والتطوير)، الفصل الخامس: التصنيف السياسي والفلسفي لدى المسلمين، ط1 2001 ، دون ذكر لدار النشر أو البلد، كتاب إلكتروني، الشاملة الذهبية.  
 علي أومليل : الإصلاحية العربية والدولة الوطنية ط1 1985، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب  
 عبد الإله بلقزيز: من النهضة إلى الحداثة، ط1 2009، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت  
 محمد عابد الجابري: وجهة نظر ( نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر ) ط1 1992 ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان .  
 محمد عابد الجابري : الخطاب العربي المعاصر ، ط6 1999، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان  
 رضوان زيادة :أيديولوجيا النهضة، ط1 2004 ، دار الطليعة بيروت لبنان  
 وجيه كوثراني: الحركات الإسلامية والديمقراطية ط2 2001 ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت  
 حسن البنا: مجموعة الرسائل (رسالة المؤتمر الخامس)، دار القلم، بيروت لبنان، دون ذكر عدد الطبعة.  
 سيد قطب: معالم في الطريق، ط10 1983 ، دار الشروق القاهرة مصر